ابن رشيق

— من محاضرة الاستاذ عبد العزيز الراجكوني —

﴿ ولادته ﴾

وأيام تربيته بالمسيلة (المحمدية)

قال ابن بسام فى ذخيرته[١] « بلغني انه وُلد بالمسيلة وتأدّب بها قليلا ثم ارتحل الى القيروان سنة ست واربعمائة » وقال بنفسه[٢] فى آخر انموذجه « صاحب الكتاب هو حسن بن رشيق ، مولًى من موالي الأزد . وُلد بالمحمدية سنة ٣٩٠ هـ وتأدّب بها يسيراً وقدم الى الحضرة سنة ٤٠٦ هـ وامتدح سيّدنا (المعزّ) سنة عشر » اهـ . قال ابن خلكان وقال غير ابن بسّام وُلد بالمهدية اهـ أقول والقول مردود بتصريح ابن رشيق على أن ابن فضل الله نسبه الى المسيلة وهذه النسبة لا تتأتى إلاّ بالولادة فان نشأه كان بالقيروان على الاتفاق . وكان أبوه رشيق مملوكاً رومياً كما يفهم من عبارة الانموذج المارّة وعلى ما صرّح نفسه[٣] فى الرد على ابن شَرَف بعد ذكره نسبَ ابن شَرَف هو اسم امرأة نائحة « وأما أنا فنظر الله فى وجنة (كذا) هذا الشيخ إليّ ، وأنعمَ به النعمة عليّ . فما أبغي به أبا ، ولا أرضى بمذهبه مذهبا . رضيت به روميا بلادعيا ولا بدْعيا » وكان مولًى لأزديّ كما مر — وهكذا يعلم من الوفيات وإنباه الرواة[٤] والمسالك . إلا أن صاحب البساط ضرب في حديد بارد وأخذ في الدعاوى وهاك ما قال[٥] :

والذي تحقق لدينا بعد الفحص الطويل عن حياة و(كذا) أخبار هذا الفحل أنه لم يثبت بكيفية قطعية أن أصل أبيه مملوك رومىّ كما يزعمه بعض أهل التراجم بدليل أن اسم رشيق هو

(١) ابن خلكان ١ : ١٣٣ وأمارى عن مسالك الابصار ٦٥٠
(٢) معجم الادباء ٣ : ٧٠ (٣) ٣ : ٧٠ (٤) في مجموعة أماري (٥) ٥٦

من الاسماء العربية المستعملة بكثرة فى ألقاب العائلات العربية الأصل المنتصبة بافريقية فى ذلك الزمان » اه بلفظه

أقول وهذا القول لا يصلح للالتفات إلا أننا نضيف الى ما مر عدة دلائل

(١) لا تكاد تعثر على أسماء أجداد الذين أسلموا كياقوت بن عبد الله الرومى — وهذا بعينه شأن ابن رشيق فان أحداً لم يذكر جدّه . فان الاسلام يَجُبّ ما قبله

(٢) ليس قولا لبعض أصحاب التراجم بل لجمهورهم

(٣) الرشيق معناه الحسَن القوام وهذه الصفة تصلح للغلمان لا الاحرار . فان الموالى كانوا يسمّونهم أفلح ورباحا ومَيْسَرة ورشيقاً الى غير ذلك نظراً الى فوائدهم هكذا قال علماء اللغة والاشتقاق — وإنى مع كل هذا أزيدك ثلاثة اسماء نقل ياقوت[1] فى ترجمة احمد بن رشيق الاندلسى عن الحميدى أن أباه كان من موالى بني شُهَيْد — ورشيق آخر[2] غلام بمجور وآخر[3] خادم الوزير عبيد الله بن يحيى بن خاقان

وهذا اختراع له آخر قال فى البساط[4]:

ومما نتيقنه أن الحسن وُلد بالمحمدية نواحي سنة ٣٨٥ ولا صحة لمن قال سنة ٣٩٠ وحسبنا شاهد (كذا) ما ذكره ابن رشيق فى أحد تآليفه عند ترجمته لبعض الشعراء الأندلسيين حيث قال : اجتمعت به بالمحمدية سنة ٤٠١ هـ . ولا يعقل أن يكون سنّ ابن رشيق إذ ذاك عشرة أعوام وهو يجالس الادباء المشاهير

أقول وهذه فِرْية بلا مِرْية كما ترى — وبحسبك قول ابن رشيق فى

(١) معجم ١ : ١٢٧ (٢) ذيل تاريخ دمشق لابن القلانيسي ٣٠ (٣) ابن خلكان بردي ليدن السنة ١٨٥٥ م — ٢ : ٣٨ (٤) ٥٦

نفسه أن مولده سنة ٣٩٠ هـ . ولا أدري لماذا خص السنة ٣٨٥ هـ للولادة مع أن أحداً لم يقل به فيما أعلم . على أنه لم يسم كتاب ابن رشيق وهذا لا يجوز فى مقام الاحتجاج وان كان لنا أن نقول انه يمكن لابن إحدى عشرة سنة أن يجتمع بالادباء وابن رشيق كان آية فى الذكاء وغاية فى قوة القريحة فى صباه كما يدلك عليه قوله فى الحُصْرِيّ فى الميم من النُتَف

وكان ابوه صائغاً كما فى الكتب السابقة بلا خلاف لاجوهرياً كما قال محمد بن شنب الجزائري صاحب المقالة عليه فى دائرة المعارف الاسلامية بالانكليزية . وعلمه أبوه صناعته مع شيء من العلم إلا أن قريحته الوقادة لم تجد ببليدة المسيلة مجالا فارتحل الى القيروان لتكميل العلوم سنة ٤٠٦ هـ

﴿ شيوخه ﴾

أبو عبد الله محمد بن جعفر القَزّاز القيروانى إمام اللغة بلامنازع صاحب الجامع فى اللغة الذى يقارب تهذيب الأزهرى كما قال ياقوت ترجمه صاحبنا [1] فى أنموذجه فقال « فضح المتقدمين وقطع ألسنة المتأخرين وكان مَهيبا عند الملوك والأمراء وخاصةِ الناس محبوباً عند العامة قليلَ الخوض الا فى علم دين أو دنيا يملك لسانه ملكا شديداً » وزين عُمدته أيضاً [2] بنقل اقواله وما جرى له فى مجلسه متأدّبا ولم أجده مزيّفا لقول له أو ناقداً عليه ـ ويظهر أن كتب [3] أئمة اللغة والأدب كأبى زيد وأبى حاتم والمبرّد وابن دُريد وصلته بهذا السند « أنشدنا أبو عبد الله محمد بن جعفر النحوىّ (القَزّاز) عن أبى على الحسين بن ابراهيم الآمدىّ عن ابن دُرَيد عن أبى حاتم السجستانى عن أبى زيد الانصارىّ » وبهذا « أخبرنا القزاز عن الآمدىّ المذكور عن علىّ بن سليمان الأخفش عن محمد بن يزيد المبرّد »

(١) ياقوت ٦ : ٤٦٩ والوفيات ١ : ٥١٥ (٢) ١ : ٦٨ ، ٨٥ ، ١٠٢ ، ١٢١ ـ ٢ : ٦٣ ، ١٥٠ ، ١٩١ وغيرها (٣) ١ : ١٢١ ـ ٢ : ١٩١ ، ١٥٠

وكان يطرح على تلامذته عويصات المسائل يَسْبُرُ غَوْرَهم فمن ذلك ما نقله صاحبنا فى عمدته[1] قال وحاجّى شيخنا أبو عبد الله بعض تلاميذه فقال له :

احاجيكَ عبّاد كزينب فى الورى ولم تُؤتَ إلا من حميم وصاحب

فأجابه التلميذ بأن قال :

سأكتم حتى ما تُحِسّ مدامعى بما انهلّ منها من دموع سواكب

فكان معكوس قول أبى عبد الله عباد كزينب [فى الورى] « سِرُّكَ ذائع » فقال الآخر سأكتم فأجابه على الظاهر إجابة حسنة ومعكوس سأكتم « منك أتيت » فكأنه قابل به قول الشيخ ولم تؤت الا من حميم وصاحب وهذا كله مليح اه فهذا يدلّ على فضل القَزّاز وأنسه بطَلَبته وعلى اصابة التلميذ وما خُصّ به ذلك العهد من نَفاق سِلعة الادب ورواج سوقه . وتوفى سنة ٤١٢ هـ وترجم له ياقوت وابن خلكان

أبو إسحق إبراهيم الحُصْرى صاحب زهر الآداب ذكره فى أنموذجه وقال انه توفى سنة ٤١٣ هـ وقال ابن بسلم سنة ٤٥٣ قال ابن خلكان[2] وذكر القاضى الرشيد بن الزبير فى كتاب الجنان أنه ألف زهر الآداب فى سنة ٤٥٠ وهذا يدل على صحة ما قاله ابن بَسام . أقول وهذا غريبٌ إذ يبعد أن يميت صاحبنا شيخه أو بلديه قبل موته الطبعى بـ ٤١ سنةً ـ وليس لدينا امارة على أنه شيخ لصاحبنا الا قول صاحب البساط وهو مجتهد لا يصيب الا قليلا . قال ابن رشيق[3] وقد كان أخذ فى عمل طبقات الشعراء الخ راجع الحكاية فى الميم من النتف . وهذا يدل على انه لم يكن شيخا له اذ لا يمكن أن يسيء به الادب وهو استاذ له

أبو محمد عبد الكريم بن ابراهيم النهشلى وقد أكثر[4] من النقل عن كتاب

(١) ١ : ٢١١ ـ ومعجم الادباء ٦ : ٤٦٩ (٢) ١ : ١٤ ـ (٣) معجم الادباء ١ : ٣٥٩
(٤) العمدة ١ : ٤٥ ، ٥٢ ، ٨٥ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٩٤ ، ١٣٨ ، ١٦٥ ، ١٦٩ ، ١٨٨ ـ ٢ : ٩٤ ، ١٩٣ ، ٢٢٨

له فى الشعر قال فى باب عمل الشعر [١] « وحدثني بعض أصحابنا من أهل المهدية وقد مررنا بموضع بها يعرف بالكدية هو أشرفها أرضاً وهواء قال جئت هذا الموضع مرة فاذا عبد الكريم على سطح بُرْج هنالك قد كشف الدنيا فقلت أبا محمد . قال نعم . قلت ماتصنع ههنا قال ألقح خاطرى وأجلو ناظرى. قلت فهل نُتج لك شيءٌ . قال ماتقرّ به عينى وعينك إن شاء الله تعالى . وأنشدنى شعرا يدخل مَسامّ القلوب رقةً . قلت هذا اختيار منك اخترعتَه قال بل برأى الأصمعى اه» ويوجد كثير من شعره فى العمدة [٢] وزهر الآداب [٣] ونثار الأزهار [٤] وغيرها . وقال فى موضع آخر من العمدة [٥] وذكر من لم يَهِجُ من الشعراء « وقد كان فى زماننا من انتحل هذا المذهب وهو أبو محمد عبد الكريم بن إبراهيم لم يهجُ أحدا قطّ ومن أناشيده فى كتابه المشهور لغيره من الشعراء :

ولست بهاج فى القِرَى أهلَ منزل على زادهم أبكى وابكى البواكيا

الى آخر الثلثة الأبيات» اه أقول وهذا الشاعر هو منظور بن سُحيم الحماسى ويبجّل اسمه ويخضع له وربما انتقد عليه [٦] شيئاً وهو مصيب فى انتقاده ولكن مع مراعاة جانب الأدب . وذكره [٧] فى الأنموذج أيضا قال « ان كُتاب الخراج بالقيروان اجتمعوا فى الديوان يوما فوقعت بينهم جرادة فوضعها بعضهم فى يده وقال : من يصفها ؟ فقال عبد الكريم بن ابراهيم النهشلى قد علمتم أنى امرؤ مُرّة ولست بصاحب بديهة . فبدرهم يعلى بن إبراهيم [٨] الأرسي» اه . وذكر له فى العمدة [٩] قولا غريبا وهو أن ابا الطيب إنما سُمّى متنبّئاً لفطنته . واقتدينا صاحب البساط فى عدّة من مشايخه وإن لم نره لغيره . هذا ويجيء ذكر خطإٍ له فى آخر المقالة

(١) ١ : ١٣٨ (٢) ٢ : ٢٢٨ وغيرها (٣) المطبوع في الصلب ١ : ١١٦ ، ١٣١
(٤) ٨١ (٥) ١ : ٧١ (٦) العمدة ١ : ١٦٩ ، ١٨٨ — ٢ : ١٩٢
(٧) البدائع ٢ : ٣٩ (٨) راجع له معجم الادباء فى ترجمة القزاز (٩) ١ : ٤٥

ابو عبد الله عبد العزيز بن أبي سهل الخشني الضرير المتوفى سنة ٤٠٦ هـ ذكره في موضعين من عمدته مرة كناه أبا عبد الله[١] واخرى أبا محمد[٢] وهذه ترجمته في الأنموذج[٣] « كان مشهوراً بالنحو واللغة جداً مفتقراً اليه فيهما بصيرا بغيرهما من العلوم ولم يُرَ قطُّ ضرير أطيب منه نفسا ولا أكثر منه حياء مع دين وعفة وكان شاعراً مطبوعاً سلك طريق أبي العتاهية في سهولة الطبع ولطائف (كذا) التركيب ولا غناء لأحد من الشعراء الحذّاق عن العَرْض عليه والجلوس بين يديه مات سنة ستّ واربعمائة وقد زاد على السبعين »

الشيخ ابو عبد الله[٤] محمد بن ابراهيم بن السمين ذكره في العمدة في غير ما موضع وكان يعرض عليه مشكلات المسائل فيحلها له

القاضي ابو الفضل[٥] جعفر بن أحمد (أو محمد) النحوي ذكره في موضعين من عمدته على ما أدى اليه نظري . ويمكن أن يكون له من المشايخ غيرهم أيضا يذكرهم في العمدة[٦] تارة بلفظ الشيوخ واخرى بلفظ بعض الشيوخ

﴿ تلامذته ﴾

من الأسف أنا لم نعثر في هذا الفصل الاّ على قطرة من عِدٍّ وها كها :

ابو محمد عبد الله بن يحيى بن حمود الحزَيْميّ (كذا) روى عن ابن رشيق شعره فالله أعلم أيرويه عنه بواسطة أو بدونها في جزء[٧] من شعره الموجود بمكتبة اسكوريال

ابو عبد الله الصفار[٨] (أو ابن الصفّار[٩]) الصقليّ كان هاجر من صقليّة الى القيروان للاجتماع به ولسماع شعره حين تغلّب عليها الروميّون كما سيمرّ بك حكايته

---

(١) ١ : ١٢٤ (٢) ٧٢ (٣) البغية ٣٠٨ والبساط ٥٧ (٤) ١ : ١٤٤ـ٢ : ٢٣ ولما أن الفراز أيضا أبو عبد الله يمكن أن يكون وقع ثم تداخل في حوالات الرجلين

(٥) ١ : ٥٧ و ١٠٣ (٦) ١ : ١٤١ وغيرها (٧) أمارى ٦٨٠

(٨) البدائع ٢ : ٣٦ (٩) مسالك الأبصار أمارى ٦٥١

﴿ شبابه وصيته فى الأقطار ﴾

أول حلقة من هذه السلسلة عثرنا عليها ما قال فى أنموذجه [1] فى ترجمة نفسه :

« وقدم الى الحضرة سنة ٤٠٦ هـ وامتدح سيدنا خلّد الله دولته (المعز) سنة عشر بقصيدة أولها :

ذَمَت لعينك أعيُنَ الغزلان قمرٌ [2] اقرّ لحسنه القمران

(انظرها فى النتف) قال ومن مدح القصيدة التى دخل بها فى جملته ونسب الى خدمته فلزم الديوان وأخذ الصلة والحلل :

لدنُ الرماح لما يَسُقّ أسنتَها من مُهجة القَيْل أو من نُغرة البطل

(انظرها فى النتف) »

وقد مرّ أنه لما وصل وفود صاحب مصر بهدايا وخلعة وتلقّاهم المعز أنشد ابنُ رشيق همزيّته . فلما انثالت عليه الهدايا وأقبلت الخاصّة جاوز صيته وطار ذكره الى ماوراء البحر من صقلية والأندلس وجاز حتى تغلغل أسماعَ ملوك الطوائف بالأندلس كما سيأتى . ونقل صاحب البساط عن ابن خلدون فى مقدمته :

« ما كان بإفريقية من مشاهير الشعراء الاّ ابن رشيق وابن شَرَف »

وفى الذخيرة [3] لابن بسّام حكايةً عن أبي عبد الله بن الصفّار الصقلىّ قال كنت ساكنا بصقلية وأشعار ابن رشيق تردعلىّ فكنت أتمنّى لقاءه حتى قدم الروم علينا فخرجتُ فرًا بمهجتى تاركا لكل ما ملكت يدى وقلتُ أجتمع بأبى علىّ فبرقةِ شمائله وطيبِ مشاهدته سيذهب عنى بعض ما أجد من الحزن على مفارقة الأهل والوطن . فجئت القيروان ولم أقدّم شيئاً على الدخول الى منزله .

---

(١) راجع ترجمته فى معجم الأدباء ٣ : ٧٠ (٢) أقول كذا فى ياقوت والحلل السندسية وأنت ذمت لأن المراد بالقمر امرأة وذكر ضمير لحسنه حملا على اللفظ ثم أنث ضميره فى البيت التالى انظره فى النتف (٣) على مافى البدائع ٢ : ٣٦ ومسالك الأبصار أمارى ٦٠١

فاستأذنت ودخلت فقام إليّ وهو ثانى اثنين فأخذ بيدى وجعل يسألنى فأخبرته بأمرى فارتضى . اهـ

وكان أهل الأندلس يقدرونه حق قدره كما قيل :

إنما يعرف ذا الفضـــــل من الناس ذَوُوه

كما سيأتى من أن عمدته لما وصلهم اختصره نحويّهم الشهير ابو بكر بن السراج (ككتاب) وعدّد فيه جملةً من أوهامه . ونرى ابن الأبّار الكاتب البَلَنْسىّ يأخذ من قُراضة الذهب له . وناهيك بتقاص شعره المجموع من الأقطار إلى مكتبة إسكوريال دليلاً على نَفاق سِلعته لديهم . وتراهم نسجوا على منواله واقتفوا مثاله استحساناً له كما فعلوا بملْق السبيل للمعرّىّ فكلّ ماحاذَوْا به هذا الكتاب وكذا أصلُه لايوجد فى غير الاسكوريال . وهذه النسخة التى طبعوه عليها أخذوا صُوَرها من أصل اسكوريال . وهذا حال شعره وقَدْرِ الناس له حقّ قدره . قال ابن خفاجة [1] فى ديوانه « خرجت يوما بشاطبةَ الى باب السّمارين ابتغاء الفُرجة على خرير ذلك الماء بتلك الساقية وذلك سنة ٤٨٠ هـ واذا بالفقيه أبى عمران ابن أبى تليد رحمه الله قد سبقنى الى ذلك . فألفيته جالسا على دكّان كانت هناك مبنيةٍ لهذا الشأن فسلّمت عليه وجلست اليه مستأنسا به فجرى أثناء ماتناشدناه قول ابن رشيق :

يامَنْ يَعُزّ ولا تمرّ به القلوب من الغَرَقْ

الى آخر الخمسة الأبيات المذكورة فى النُّتَف . فقلت وقد أعجبت بها جدًّا وأثنى عليها كثيرا أحسنُ مافى القطعة سياقة الأعداد وإلا فانت تراه قد استرسل فلم يقابل بين الفاظ البيت الأخير والبيت الذى قبله فيُنْزِلَ بإزاء كل واحدة منها مايلائمها . وهل ينزل بازاء قوله واذا نطق قوله شغل الحدق . وكأنه نازعنى القولُ

(١) نفح الطيب مصر ٢ : ٢٠٤ ليدن ٢ : ٢١٦ و ٢١٧ والبدائع ٢ : ٤٦

فى هذا غاية الجهد فقلت بديها :

ومهفهفٍ طاوى الحشا خَيِثِ المعاطف والنظر
ملأ العيون بصورة تُليتْ محاسنُها سُوَر
فاذا رنا واذا مشى واذا شدا واذا سَفَر
فضح الغزالة والقَطا مةَ والحمامة والقمر

فُجنَّ بها استحسانا . وقال ابن ظافر القطعة القافيةَ ليست لابن رشيق بل هى لأبى الحسين على بن بشر الكاتب أحد شعراء اليتيمة اه ومثله مارواه [1] ابن حمديس قال اجتمعت مع أبى الفضل الكاتب جعفر بن المقترح بسبتةَ فذكر لى بيتى ابن رشيق :

البحر صعب المرام مرٌّ لاُجعلت حاجتى إليه

(راجعها فى النتف) ثم قال لى أتقدر على اختصار هذا المعنى قلت نعم أقدر على ذلك وأنشدته (وذكر بيتين) فاستحسن ذلك إذ كان على الحال وأقام عنى أياما ثم اجتمعت به فأنشدنى لنفسه فى المعنى (وذكر بيتين) فأنشدته لى فيه (وذكر بيتين وكل الأبيات فى النتف)

وأما طيران صيته ونباهة ذكره بالقيروان فحسبك فيه ماجرى بينه وبين الحُصْرى وقوله فيه بيتين راجعها فى الميم قال « فبلغه البيتان فأمسك عنه واعتذر منه ومات وقد سُدَّ عليه باب الفكرة فيه ولم يصنع شيئاً » اه ومثله مانقله الدباغ [2] فى ترجمة القاضى محمد بن جعفر الكوفىّ قال وجرت عليه محنةٌ أعقبها التأخرُ عن قضائهم والزهد فى جوارهم وذلك بسبب أبيات صنعها ابن رشيق :

ياسالكا بين الأسنة والضُبا [3] إنى أشَمُّ عليك رائحةَ الدم

(انظر البيتين فى النتف) منها هذان البيتان صنعها معرِّضا به فنمت الى

(١) على هامش المعاهد ٢ : ٢٠ (٢) المعالم ٣ : ٢٤٤ (٣) الغاربة يكتبون الظاء ضادًا كما هو معروف من خطهم ، أنظر أنيس القرطاس

السلطان فكانت سبب محنته (ثم ذكر مصادرته وفراره الى مصر وتولّى قاض آخر جميعَ ما كان يتولاّه هو) ثم قال وزال القضاء عن بني الكوفي وكانت لهم في ولايته نيف وسبعون سنة تولاّه أربعة منهم في هذه المدة اه. وترى[1] في الراء بيتين له عارض بهما بعض أصحابه وكان سبقه الى بيتين له في المعنى فلما أنشده ابن رشيق بيتيه قال فضحتني وهذا يدل على أن معاصريه كانوا يُقرّون له بالسبق في الرهان وإحراز الخصل عند الأقران

مناعة عسير

يكتب الفريق سليمان شفيق باشا وزير الحربية العثمانية سابقاً مذكراته في هذه الايام عن بلاد العرب، ولا سيما العسير التي كان فيها حاكماً وقائداً لجيش الدولة العثمانية بعد اعلان الدستور العثماني، ويَنشرها في جريدة الاهرام مترجمة بالعربية بقلم منشيء الزهراء. ومما جاء فيها عن مناعة تلك المقاطعة العربية في البر والبحر قوله:

في بعض الساحل الشمالي من اليمن وعلى طول ساحل عسير توجد في البحر ستارة من مادة الشبّ ممتدة من (قَمَران) الى (الليت) موازية للساحل، وعند جزائر (فَرسان الصغرى) و(فَرسان الكبرى) وما بينهما. وبين هذه الستارة البحرية والساحل مَضيقٌ طوله ستمائة كيلو متر يمكن المرور منه. وعلى ذلك فالسفائن البحرية الكبرى لا تستطيع الاقتراب من ساحل عسير الا اذا دخلت من أحد مدخلي المضيق عند الليت أو قمران. والحكومة التي تملك عسيراً اذا أقفلت هذين المضيقين بالوسائط الفنية تحافظ على سواحلها بسهولة وتجعل سفن العدو في خطر لا يمكن اجتنابه

وتوازي الساحل في البر جبال غرانيتية لا ترتقى الا بسلوك منافذ معينة للوصول الى قممها، ومن المتعذر ارتقاء العربات والاحمال الثقيلة فيها. ولا يمكن مهاجمة القسم الجبلي من عسير من جانب الساحل الا بعد الاستيلاء على تلك الذرى والمنافذ. فالقارىء يرى أن عسير ذات حصون طبيعية في البحر والبر معاً

(١) البدائع ١ : ٢٤٠